المحاضرة الثانية:

الاتجاه الواقعي في الرواية العربية

الواقعية: مذهب فلسفي يجعل الواقع المادي المحسوس الاعتبار الأول وأطلق في القرون الوسطى على المذهب الذي يرى أن الكليات لها وجود حقيقي، وهو مذهب أدبي يعتمد على الوقائع والوثائق ويعني بتصوير الطبقة الكادحة في المجتمع.

إن الواقعية انعكاس الانعكاس لأن نظرية أفلاطون كما هو معروف تقر بأن العالم الخارجي انعكاس للصورة الذهنية أو المثل العليا، وقد عرفها علم الجمال على أنها فن يحاول أ، يمثل الأشياء بأقرب صورة لها في العالم الخارجي. ويعرفها ناقد آخر بأنها التمثيل الموضوعي للواقع الاجتماعي المعاصر.

تشكلت الواقعية كمنهج خلال عصر الإصلاح والنهضة عندما اهتمت بالإنسان ككائن اجتماعي يرتبط بعالم الواقع مؤكدة على اهتمام الفن أو الإبداع بأبسط ظواهر الحياة الواقعية، وقضاياها وكل ما يهم ويمس الإنسان.

تطور مفهوم الواقعية عبر الزمن متأثر بالحركات والنظريات الفلسفية والسياسية التي ظهرت تباعه.

لقد حملت نظرية الواقعية في فترة ما طابعا ديمقراطيا؛ حيث رفضت بشدة الخطاب الوعظي المبتذل، ودعت إلى ضرورة التصوير الصادق والموضعي للحياة، كما دعا بعض المناهضين لها إلى الابتعاد عن التكلف والافتعال وتزييف الأحاسيس الإنسانية.

لقد باتت الواقعية تعنى بتصوير الأشياء كما هي أي تقديم الموضعي المحسوس للتفاصيل الملاحظ في الحياة الواقعية.

لقد ورثت الواقعية مجموعة من القيم عن المدرستين الكلاسيكية، والرومانسية، واحتضنت الاتجاه من إنجازاتهم لذا صرح الفيلسوف الإنجليزي المشهور إنجلز قائلا:

الواقعية في رأي عدا كونها تفترض الصدق في التفاصيل، تتطلب التصوير الصادق لشخصيات نمطية في ظروف نمطية"

إن الأساس الفلسفي للواقعية هو الاعتراف بالواقع الموضوعي القائم بمعزل عنا والمتطور وفق قوانينه الخاصة، وإن هذا الواقع ممكن معرفته واستيعابه، كما يمكن اكتشافه فنيا.

يمتاز الأسلوب الواقعي بوضوحه، بحيث يبدو التصوير الفني والواقعي الموضوعي متقاربان إلى حد بعيد.

إن الواقعية لا تنشد البطل الجاهز المكتمل الأوصاف، بل الإنسان المختلط بصفاته العديدة المتناقضة، الإنسان الذي ينمو ويتطور مع الأحداث والوقائع، وخلال الفعل، فهو يعيش في المجتمع ويرتبط مصيره إلى مصيره إلى حد كبير ومن هنا تنشأ شعبية الأدب الواقعي التي هي سمة جوهرية في الأدب.

إن الصدق الفني الذي تدعو إليه الواقعية هو مبدأ من مبادئها الأساسية ويعني التصوير الصادق لشخصية نموذجية في ظروف نموذجية لحياته.

إن الواقعية هي التجسيد الفني لحقيقة الحياة في أشكال الحياة الواقعية ذاتها حيث لا يمكن للكاتب أن يكون واقعيا دون كشف عالم الإنسان الداخلي من كل الجوانب، وفي علاقاته السببية بالعالم الخارجي دون تصوير أفعال وعلاقات الناس من خلال الشروط الاجتماعية والنفسية، ودون تجسيد الحياة بأناسها الفاعلين المنفعلين في صورتها الملموسة تاريخيا وفي حركة تطويرية.

يقول بلزار: "لا يبجو كل ما يجري في صميم الواقع صحيحا في الأدب، وليس كل ما هو صحيح في الأدب صحيح في الواقع".

إن التصوير الواقعي هو ما تتميز به الطبيعة الإنسانية لذلك أثر النقاد والكتاب التحدث عن حقيقة الحياة في جوهرها العميق، والوصول إلى ما يمكن أن نسميه

بالأسرار الكامنة والكاملة ضمن اتجاهاتها النسبية، لأن كل تصوير فني للحياة يحمل طابعا نسبيا نابعا من طبيعة الفن.

إن التطور العالم الداخلي للإنسان ومختلف التناقضات التي تنشأ في سيرورة الحياة الاجتماعية وفي علاقات الفرض بالمجتمع هي في الأساس اهتمامات الأعمال الواقعية إذ تصور مشكلات هذا الواقع وهمومه على مستوى طبقة اجتماعية كاملة وليس على مستوى الفرد، فالشخصية فيها لا تمثل فردا يعيش أزمته الخاصة وهمومه الذاتية إنما هي أقرب إلى أقرب إلى النموذج الاجتماعي الذي يحمل خصائص طبقة اجتماعية بذاتها ويعير عن أفكارها وقيمتها.

إن مثل هذا النوع من الروايات (الرواية الواقعية)، الزمنية التي تقع أحداث الرواية فيها.

يقوم الأسلوب الواقعي على التمثيل الموضوعي للواقع الاجتماعي المعاصر؛ فهو يجتنب الغريب والشاذ من الواقع، والأحداث، ولا مكان فيه للمعجزات، والمصادفات، وترتبط فيه الأسباب بالنتائج، ولا يقتصر تناوله على الموضوعات الخيرة، بل يتناول كذلك القبيح والشيء أو يقدم المجتمع بإيجابياته وسلبياته، بكمالاته ونقائصه.

كما يعتمد هذا لأسلوب (الواقعي) وصف الأحداث والشخصيات معتمدا في ذلك على التفصيلات، والجزئيات حتى ليوشك أن يصور الواقع تصويرا آليا بعيدا في ذلك عن عواطف الكاتب ومشاعره.

تتميز الرواية الواقعية بجملة من الظواهر التي تميزها عن غيرها من الاتجاهات الأخرى ومن بين هذه الظواهر:

1- ظاهرة الانتماء السياسية والعقائدي:

لم خافيا أن هذه الروايات كانت تنتمي بكل مكوناتها (الكاتب، البطل، الأحداث...إلخ). إلى أحزاب سياسية كانت معروفة في فترة صدور هذه الروايات خاصة في بداية القرن العشرين.

أما الجانب العقائدي فكان حاضرا آنذاك في الرواية الواقعية حيث مثلت هذه الرواية أرضا خصبة لظهرو إيديولوجيات جديدة اعتنقها الفنان ومن ثم السواد الأعظم من الناس (الاشتراكية، الرأسمالية، الشيوعية، التيار الإسلامي)

2- ظاهرة الفقر والحرمان:

إنه واقع اجتماعي شكل موضوعا ثريا احتضنه الكتاب الروائيون حيث عبروا عن هذه الظاهرة من خلال الشخصيات والأحداث التي استطاعت أن تغوص في أعماق المجتمع لتعري جميع النقائص والتغيرات الاجتماعية، الأخلاقية، والاقتصادية.

3- السقوط الجنسي:

لقد خصت الرواية الواقعية بتصوير هذه الظاهرة وهي الممارسة غير الشرعية للجنس التي كانت تمثل وسيلة للكسب والارتزاق وأداة لمغالبة الفقر والحرمان.

4- الشذوذ الجنسي:

ظاهرة اجتماعية لها أسبابها ونتائجها وقد حاولت الرواية الواقعية أن تتناولها بالوصف والتصوير.